الباب السابع

بين الذاتية والمشروع القومي

obeikandl.com

obeikandl.com

محمد علي باشا بين الذاتية والمشروع القومي

بحسب المقررات الدراسية فإن محمد علي باشا هو باني دولة مصر الحديثة، وهو ما يعني بالضرورة أن مصر لم تكن تحمل خصائص الدولة الحديثة الا بوصول محمد علي إلى سدة الحكم فيها وحين نتجاوز التحفظات المشروعة على هذه النقطة التي تحوي مغالطات كثيرة سيفاجئنا سؤال آخر: هل فعل الباشا ما فعل حباً في المصريين، أم حباً في تمجيد نفسه وخلق حكم عضودٍ يمكن توريثه لعائلته جيلاً بعد جيل؟

الثابت أن محمد علي كان المروّج الأول لمقولة أنه باني الدولة الحديثة، وهو ما كان يردده لدى لقاءاته بالدبلوماسيين والمسؤولين الأجانب، الذين نقلوا عنه في ما كتبوه عن تلك الحقبة، أنه كان يتصور نفسه مخلصاً أرسلته السماء لإنقاذ مصر وشعبها ونقلهما لمصاف الدول المتقدمة هذا الحب الغامض لمصر الذي تناقله المؤرخون منذ الرافعي، الذي تحدث في كتابه عصر محمد علي عن جهاد محمد علي في سبيل حصول مصر على استقلالها الوطني، ذلك الحب يمكن أن يصبح مثار تساؤل، فهل كان محمد علي يؤمن بالحرية كقيمة، لذلك سعى لخلق ملك خاص بالمصريين وحدهم وباستقلال عن الباب العالي؟ هل يبدو مقنعاً أن الباشا الذي ناضل من أجل استقلال العرش المصري كان نفسه الذي نفّذ التوجيهات العثمانية بضرب محاولات الاستقلال في اليونان؟.

نظرية الحب هذه لا تصلح لتبرير التاريخ الذي يشير إلى أن محاولات أخرى من قادة آخرين كانت تهدف هي الأخرى لخلق أوطان مستقلة أو شبه مستقلة يتم توريثها للأبناء والأحفاد، فقط كان محمد علي هو الأوفر حظاً والأكثر نجاحاً في ذلك الحديث عن الدولة المصرية يحمل أيضاً بعداً مختلفاً، ففي ذلك الوقت لم تكن الحدود هي الحدود، وكانت حدود الحكم هي المنطقة الأخيرة التي تستطيع التوغل فيها، ما يعني أن مصر في خاطر محمد علي كانت تشمل ليس فقط ما يعرف حالياً بالجمهورية المصرية، ولكن أيضاً بلاد الشام ومنابع النيل وحتى الحجاز، وقد خاض في كل تلك المناطق حروباً ونزاعات جاء بعضها بتنسيق مع السلطان العثماني، كالحرب على الوهابية في الحجاز وعلى الثوار اليونانيين.

هناك وجهة نظر ترى الأمور بعين مختلفة، حيث تعتقد أن محمد علي كان لا يركز الا على وادي النيل، وأنه حتى توجهه إلى سوريا كان بهدف خلق منطقة استراتيجية تفصل بين العمق العثماني ودولته الوليدة والعلاقة بين والي مصر والسلطان العثماني كانت في ما يبدو علاقة معقدة، حيث كان محمد علي جزءاً من السلطنة العثمانية، وحالماً بالاستقلال عنها في الوقت ذاته ، مقدماً خدمة التدخل السريع للباب العالي، حينما يحتاج ومنقلباً عليه بقوة في ١٨٣١ حينما وجه جيوشه لضم منطقة الشام داخلاً في حرب عنيفة مع السلطان وجنوده، لكن

التناقض هو أيضاً من جانب السلطان العثماني الذي أعجبته قوة واليه، لدرجة أنه حاول أن يعهد إليه بمهمة تدريب الجيش العثماني كله وتطويره على غرار الجيش المصري هذا الاعجاب أدى من ناحية للاستعانة بجيشه الحديث ومن ناحية أخرى للخوف من طموحه غير المحدود.

وفي عام ١٨٢٨ دخلت العلاقة بين الطرفين نفق التحدي، حيث لم يحرّك محمد علي جيشه لمساعدة السلطان في صد هجوم الروس الكاسح على مناطق مولدوفيا والقوقاز، رغم طلب السلطان، وفي ابتزاز اشترط مقابل ذلك الحصول على ولاية الأناضول تعقّد هذه العلاقة نبع أيضاً من تناقض المشروعين، مشروع السلطان محمود الثاني الذي حاول بدء إصلاحات فى امبراطوريته من أجل تقويتها وتثبيت أركانها عن طريق تقوية المركز، ومشروع محمد علي باشا الذي أراد لإقليمه أن يكون أقوى حتى من الأستانة.

لا شك أن الوالي الطموح قد تردد لفترة طويلة قبل أن يتمرد على السلطان العثماني، فقد كان الأخير بحسب غالبية العامة سلطاناً للإسلام وأميراً للمؤمنين، وكان يعلم ما لأئمة المساجد مثلاً من أثر، إذا ما تم توجيههم للنظر إليه على أنه خارج لا يستحق الولاء ولا الطاعة، وهو ما حدث بالفعل إبان اشتداد الأزمة بين والي مصر والسلطان.

بالنسبة لمحمد علي فإن سياسات الباب العالي لم تكن مدروسة بشكل جيد وغلب عليها الاندفاع وهو ما سيؤثر ليس فقط على السلطنة التي تتهاوى، بل على الولاية المصرية شبه المستقلة التي تورطت في حرب اليونان ومعاداة دول أوروبا المتحالفة مع الرعايا من النصارى الباحثين عن الاستقلال ذلك التورط سيفقد باشا مصر ترسانته البحرية وعتاده الذي جمعه عبر السنين.

قراء سيرة حياة الباشا هم أيضاً متناقضون، فكل قد رأى تلك الشخصية بحسب ما أراد، لكن القراءة الأطرف كانت في محاولة تصويره باعثاً للقومية المصرية أو العربية وهو الحاكم الذي كان لا يتحدث العربية ولا يفتخر بلغة غير التركية، التي كانت لغة رسمية تترجم إليها جميع مكاتبات الدولة والمتدينون من الكتاب والمفكرين كانت لهم قراءات متفاوتة بين من اعتبر محمد علي حريصاً على الاسلام، رغم اختلافه مع القيادة الاسلامية، وبين من اعتبره مجرد مبتدع وخائن كالامام محمد عبده، الذي انتقده بقوة وهو يعتبر أن حملات محمد علي ضد خليفة المسلمين، هي التي أظهرت ضعف الدولة المسلمة، مما جرأ الأوروبيين لاحقاً على التدخل في شئونها وقضم بعض أجزائها محمد عبده وعلى صفحات مجلة المنار انتقد بقوة الحرب التي أعلنها والي مصر على الوهابية، التي كانت بالنسبة له حركة للتجديد والاصلاح الديني في

الجزيرة العربية، كما اعتبر أن محمد علي هو أول من مهّد لتنحية الشريعة الاسلامية وإحلال القوانين الغربية مكانها.

ربما يكون محمد علي قد فعل كل ذلك، كما قد يكون فعلاً من المتأثرين بفرنسا التي فتنته بجيشها ، كما فتنته بعلومها وحضارتها وطريقتها في سن القوانين بالنسبة إليّ حاول محمد علي نقل مصر إلى الحضارة عن طريق اقتباس المثال الفرنسي بكل ما فيه وتنزيله على واقع مغاير، لذلك فقد كانت العقبة الأولى التي واجهته هي الشعب نفسه والسكان الذين كان التجنيد الاجباري غريباً عليهم فقاوموه كما قاوموا جميع مشاريع التحديث الاجتماعي وهو ما أدى إلى فرض تلك الاصلاحات بالقوة.

علينا أن نحذر هنا من إظهار محمد علي متأثراً وحيداً بفرنسا فقد تأثر العالم الاسلامي كله وقتها بجيش الفرنسيين وعلومهم، كما تأثر قبله السلطان سليم الثالث الذي حاول خلق توليفة تقتبس من الغرب ولا تندمج معه، فقام بإدخال تعديلات على نظام الجيش استفاد منها محمد علي نفسه، وهو يعد نواة الجيش الجديد.

هنالك الكثير من الكتب التي حاولت تحليل شخصية هذا الرجل الذي شكّل علامة فارقة في تاريخ المنطقة العربية والاسلامية، لكنها لم تختلف على شيء قدر اختلافها حول إجابة السؤال الأول والأهم: هل كان منشأ كل ما فعله ذلك الزعيم هو الطموحات الذاتية التي تنحصر في مجده

الخاص هو وأسرته، أم أنه أحب مصر فعلاً وأراد أن يجعل منها ملكاً خاصاً ووطناً فريداً ؟

دور الاحتلال وعمالة محمد على لحرب الاسلام

احتضنت فرنسا محمد علي احتضانًا كاملاً لينفذ لها كل المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بعد أن اضطرت للرحيل حيث أنشات له جيشًا مدربًا على أحدث الأساليب ومجهزاً بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ بإشراف سليمان الفرنساوي (جوزيف سيف)، وأنشات له أسطولاً بحريًا حديثاً وترسانة بحرية في دمياط، ثم أخذت في تكبير محمد علي وإغرائه بالاستقلال عن السلطان، فتنفصل بذلك قطعة من أرض المسلمين عن الدولة الاسلامية (وذلك يضعفها ولا شك) ثم يكون محمد علي نموذجًا مغريًا لغيره من الولاة، فيستقلون تباعاً عن الدولة رغبة في السلطان الذاتي، فتتفكك عرى الدولة وتنهار وهو الذي حدث بالفعل في عهد السلطان عبد المجيد حيث قامت الفتن الداخلية في الولايات العثمانية، وازدادت الدولة ضعفًا على ضعف، مما زاد من أطماع الدول الأوروبية فيها، فدُعيت باسم الرجل المريض، وأخذ الأوروبيون يخططون لاقتسام تركتها مستقبلاً وقد قام محمد علي بالدور المطلوب منه خير قيام الجيش الذي صنعته له فرنسا استخدمه في محاربة الدولة العثمانية دولة الخلافة والدولة السعودية الاسلامية السلفية المصلحة

وقاتل خليفة المسملين مما يعد حرابة ، إلى جانب أن قتاله الدولة العثمانية أظهر للعالم كله وخاصة أوروبا ضعفها وعجزها وجرأهم على التدخل في أمور سياستها ، وكاد أن يسقط الدولة العثمانية، لولا تعارض ذلك مع مصالح الدول الغربية التي أوقفت محمد علي وأرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي ضمها .

- على أن الجرم العظيم الذي تولى كبره محمد علي باشا هو قيامه بضرب الاتجاه الاسلامي السلفي في الجزيرة العربية تظاهرًا بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين، فقاتل دولة السعوديين العربية المسلمة المصلحة السلفية ، وقضى على ما نهضوا به من اصلاح ديني في جزيرة العرب واتخذ من ذلك ستارًا لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً على مصالحهما، خصوصًا في الخليج العربي والبحر الأحمر.

- وقد كان على رأس تلك الجيوش التي وجهها محمد علي ضباط فرنسيون وبعض النصارى.

- وقد سرَّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر، وكذلك بريطانيا وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية ومن ذلك بالطبع ضرب الاتجاه السلفي في الجزيرة العربية.

وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر، وكل هذا لم يكن حبًا في شخص محمد علي أو حبًا في مصر، وإنما كان كالقضاء على الدولة العثمانية، والقيام بتغريب عن طريق تغريب مصر بلد الأزهر وفي ذات الوقت كانت الخطة تغريب العالم الاسلامي بتغريب مصر بلد الأزهر بعد استقلالها لضمان تبعيتها الدائمة للغرب وانفصالها النهائي عن الاسلام.

وأكبر دليل على أن صناعة الصليبيين للجيش المصري وتسليحه لمحاربة الاسلام فقط أن أوروبا تجمعت كلها لتحطيم محمد علي في معركة نافارين لأنه نسي نفسه وتجرأ على مهاجمة دولة صليبية وهي اليونان ، فهنا يجب تأديبه، بل تحطيمه تحطيماً كاملاً إذا لزم الأمر.

وكان السلطان محمود الثاني قد وعد محمد علي بأن يوليه على بلاد الشام ، ثم أخلف وعده، إذ شعر أن وجود محمد علي في الشام خطرٌ على كيان السلطنة نفسها فقرر محمد علي أن يجتاح بلاد الشام بالقوة، فوجه جيشه إلى فلسطين ولبنان وسوريا الوسطى والشمالية، وامتد زحف الجيش المصري إلى الأناضول حيث هزم الجيش العثماني حديث النشأة في قونية، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الأستانة، حتى خُيل للعالم في ذلك الوقت أن نهاية الدولة العثمانية أصبحت قريبة فاستنجد السلطان محمود الثاني بالدول الأوروبية للوقوف في وجه الخطر المداهم، فلم

ينجده الا روسيا، التي أرسلت ١٥ ألف جندي إلى الأستانة للدفاع عنها، فخشيت بريطانيا وفرنسا من امتداد النفوذ الروسي وتوسطت للصلح مع محمد علي وفي غضون ذلك توسّع النفوذ الروسي في الدولة العثمانية خصوصاً بعد أن أبرم السلطان معاهدة مع روسيا تعهدت فيها الأخيرة بالدفاع عن الدولة العثمانية لو هاجمها المصريون أو غيرهم.

خلف السلطان عبد المجيد الأول أباه السلطان محمود الثاني، وهو صبيّ لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره وكانت الدولة العثمانية على شفي الانهيار، إذ أصبحت بلا جيش، بفعل خسارة الجيوش العثمانية أمام المصريين، وتشتيت القوى المسلحة، فسارع السلطان الفتى إلى إجراء مفاوضات مع محمد علي، فاشترط الأخير، لعقد الصلح، أن يكون الحكم في الشام ومصر حقًا وراثياً في أسرته وكاد السلطان عبد المجيد يقبل شروط محمد علي لو لم تصله مذكرة مشتركة من الدول الأوروبية الكبرى، عدا فرنسا (لاحظ فرنسا لم توقع) ، تطلب إليه ألا يتخذ قرارًا يتعلق بمحمد علي الا بمشورتهم، ووعدوه بالتوسط بينه وبين محمد علي، فوافق على ذلك ثم اجتمعت كل من بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا وعقدوا اتفاقية صدق عليها العثمانيون، وعرضوها على محمد علي، وهي تنص على بقاء ولاية مصر وراثية في عائلته، وولاية عكا مدى حياته فرفض محمد علي ذلك وطرد المندوبين الأوروبيين

والمندوب العثماني من مصر، وبناءً على ذلك هاجمت البوارج الحربية البريطانية والنمساوية والعثمانية مدن الساحل الشامي واستطاعت أن تحرز انتصاراً كبيرًا على جيوش محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وأجبرته على العودة إلى مصر والانكماش فيها، وبذلك عادت الشام إلى ربوع الدولة العثمانية، وأصبحت سيادة الدولة على مصر سيادةً اسميّة وتوصلت الدول الأوروبية الكبرى، بعد انتهاء الأزمة العثمانية - المصرية، إلى عقد اتفاقية جماعية مع الدولة العثمانية، أطلق عليها تسمية معاهدة المضائق أو اتفاقية لندن للمضائق،وقد أرست هذه الأتفاقية نظاماً للمضائق العثمانية ظل مطبقًا بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى حيث حدث في عهد السلطان عبد المجيد عدد من الفتن الداخلية في الولايات العثمانية، وازدادت الدولة ضعفاً على ضعف، مما زاد من أطماع دول أوروبا فيها، فدُعيت باسم تركة الرجل المريض، وأخذ الأوروبيون يخططون لاقتسامها مستقبلاً.